الدرس التاسع

(المتن)

قال المؤلف –رحمه الله–: واعلم أنك إذا تأمّلت جميع طوائف الضّلال والبدع، وجدت أصل ضلالهم راجعًا إلى شيئين:

أحدهما: الظّن بالله ظنّ السّوء، ولم يقدروا الرّب حقّ قدره، فلم يقدره حقّ قدره من ظنّ أنه لم يرسل رسولاً، ولا أنزل كتابًا، بل ترك الخلق سدى، وخلقهم عبثا.

ولا قدره حقّ قدره من نفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده، من طاعتهم ومعاصيهم، وأخرجهما عن خلقه وقدرته.

ولا قدر الله حقّ قدره أضداد هؤلاء، الذين قالوا: إنه يعاقب عبده على ما لم يفعله، بل يعاقبه على ما فعله هو سبحانه وتعالى، وإذا استحال في العقول أن يجبر السّيد عبده على فعل ثمّ يعاقبه عليه، فكيف يصدر هذا من أعدل العادلين؟، وقول هؤلاء شرّ من أشباه المجوس القدريّة الأذلين.

(الشرح)

بين الشيخ رحمه الله أن أصل الضلال عند جميع أهل البدع يرجع إلى أمرين، أحدهما: ظنهم بالله ظن السوء، كما تقدم، الثاني: من ظن أنه ﷻ لم يفعل ما هو مقتضى الحكمة من إرسال الرسل وإنزال الكتب وإقامة الحجة الرسالية التي يبين به الهدى من الضلال، أو أنه ترك الحلق سدى الخ.

فكان في هذا مدخلا لبيان ضلال طائفتين في باب القدر، إحداهما القدرية والثانية الجبرية، وذلك أن الناس اختلفوا في أفعال العباد، فبعضهم غلا في إثبات أفعال العباد حتى زعموا أن العبد يخلق فعل نفسه، وأن الله تعالى لا شأن له بأفعال العباد، فالذي يخلق الطاعة هو الطائع والذي يخلق المعصية هو العاصي، دون الله ﷻ.

وقابلهم قوم على النقيض وهم الجبرية فقالوا إن، الله ﷻ هو الذي أجبر الطائع على طاعته وأجبر العاصي على معصيته، وسلبوا العبد أي قدرة وأي فعل حقيقي، وقالوا: العبد كالريشة في مهب الريح، وكالقشة على ظهر الماء يحركها الماء صعودا وهبوطا، وحركات العبد كحركات المرتعش اضطرارية وليست اختيارية.

وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، فإن الذين غلوا في أفعال الله حتى سلبوا العبد فعله وإرادته وهم الجبرية، والذين غلوا في أفعال العباد حتى أنكروا قدر الله كل منهما قد أخطأ خطأ فاحشا، وسر ذلك أن كلا من الفرقين نظر إلى طائفة من النصوص وأغمض عن الطائفة الأخرى.

فالقدرية نظروا إلى النصوص الدالة على أن العبد له مشيئة واختيار وإرادة، وأغمضوا أعينهم عن النصوص الدالة على طلاقة مشيئة الله تعالى وخلقه لكل شيء، والجبرية، نظروا إلى النصوص الدالة على أن الله خالق كل شيء، وأغمضوا أعينهم عن النصوص الدالة على أن العبد له إرادة حقيقية وفعل حقيقي، ومشيئة حقيقية.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ

أما أهل السنة والجماعة فأبصروا النصوص جميعًا، وجمعوا بينها فهدوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه، كما جمع الله بينهم بقوله: {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيم * وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِين} [التكوير:٢٨-٢٩]، فالآية الأولى {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيم} تدل على أن العبد له مشيئة وله فعل، وهو الاستقامة، والآية الثانية {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِين}، تدل على أن مشيئته مقيدة بمشيئة الله تعالى.

فمشيئة العبد محكومة بمشيئة الله، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يتم إيمان امرئ بالقدر إلا بتحقيق أربع مراتب:

أولها: الإيمان بعلم الله المحيط بكل شيء جملة وتفصيلا، فلا تخفى عليه خافية، لا من آجلهم ولا من أرزاقهم ولا من طاعاتهم ولا من معاصيهم، علم ما الخلق عاملون، كما علم آجالهم وأرزاقهم.

الثانية: أن الله ﷻ كتب ذلك عنده في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة في كتاب مبين،.

الثالثة: الإيمان بأن الله تعالى شاء كل شيء مشيئة نافذة، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا يكون في ملكه ما لا يريد.

الرابعة: أن الله خالق كل شيء، فما من شيء إلا والله خالقه وموجده، ولا يمكن أن يوجد مخلوق لغير الله تعالى.

هذه المراتب الأربع هي التي يتحقق بها الإيمان بالقدر، فمن قصر في شيء منها فإنه لم يقدر الله حق قدره، وهؤلاء هم القدرية النفاة.

ذكر أضداد هؤلاء وهم الجبرية، القائلين أن العبد ليس له فعل ومع ذلك يعاقبه الله على معصية.

فالقدرية وصفوا الله بالجهل والعجز، والجبرية وصفوا الله بالظلم، فما قدروا الله حق قدره.

وضرب مثلًا يكشف زيف مقال الجبرية فقال: وإذا استحال في العقول أن يجبر السّيد عبده على فعل ثمّ يعاقبه عليه، فكيف يصدر هذا من أعدل العادلين؟، ثم الجبرية شرّ من أشباه المجوس القدريّة.

ولأن الجبرية نفوا الحكمة والتعليل، وزعموا أن أفعال الله غير معللة ولا يفعل لحكمة، بل يفعل بمحض المشيئة، فالجبرية شر مكانا من القدرية لأن؛ القدرية يعظمون الأمر والنهي، ولا حملهم على إنكار القدر إلا تعظيمهم للأمر والنهي، أما الجبرية فأبطلوا الحكمة والتعليل ووصفوا الله ﷻ بما يقتضي الظلم، فقولهم شر من قول القدرية.

(المتن)

ولا قدره حقّ قدره من نفى رحمته ومحبّته ورضاه، وغضبه، وحكمته مطلقا، وحقيقة فعله، لم يجعل له فعلاً اختياريا، بل أفعاله مفعولات منفصلة عنه.

(الشرح)

هذا رد على نفاة الصفات من أهل التعطيل، وهذا يدل على أن المقريزي -رحمه الله- قد خرج من أسر المدرسة الأشعرية، فإن الأشاعرة لا يثبتون الرحمة ولا المحبة ولا الرضا ولا الغضب ولا الحكمة، فالعالم الموفق الطالب للحق لا يظل

أسيرا لموروثاتهم، بل إذا تبين له الحق قال به، فالمقريزي -رحمه الله- سلك مسلك أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات، وأثبت الصفات الاختيارية.

(المتن)

ولا قدره حقّ قدره من جعل له صاحبةً وولدًا، وجعله يحلّ في مخلوقاته، أو جعله عين هذا الوجود.

(الشرح)

أما من جعل له صاحبة وولدا فإنهم مشركو العرب، وجعلوا له من الجِنة نسبا، زعموا أن الله تعالى اتخذ زوجة من الجنة أنجبت له الملائكة، تعالى الله عما يقولون، وممن ادعى له الولد اليهود لقولهم: عزير ابن الله، والنصارى لقولهم: المسيح ابن الله، وزعموا أن الرب سبحانه وبحمده وعز وجل حل في المسيح، (أو جعله عين هذا الوجود)، وهو قول أصحاب وحدة الوجود قبحهم الله وهم زنادقة الصوفية الذين يقولون إن الخالق عين المخلوق وهؤلاء من أشد الناس كفرا.

(المتن)

ولا قدره حقّ قدره من قال: إنه رفع أعداء رسوله وأهل بيته، وجعل فيهم الملك، ووضع أولياء رسوله وأهل بيته، وهذا يتضمّن غاية القدح في الرّب، تعالى الله عن قول الرّافضة.

(الشرح)

فمقتضى قول الرافضة أن كل ما جرى في التاريخ الإسلامي أنه رفعة لأعداء رسوله وأعداء أهل بيته، وهذا من إساءة الظن بالله، والأمر لم يقع كما يظنون، فإن الذين رفعهم الله ﷻ وأعلى مكانتهم هم أهل السنة، وأما المخذولون فهم أصحاب هذه الدعوى.

(المتن)

وهذا مشتق من قول اليهود والنصارى في ربّ العالمين: إنه أرسل ملكا ظالما، فادعى النبوّة، وكذب على الله، ومكث زمنًا طويلاً يقول أمرني بكذا ونهاني عن كذا، ويستبيح دماء أنبياء الله وأوليائه وأحبائه.

(الشرح)

لعلها: ويستبيح دماء أتباع أنبياء الله؛ لأن اليهود والنصارى يزعمون هذا في حق نبينا محمد ﷺ، ونبينا ﷺ لم يدرك أحدا من الأنبياء حتى تكون دعواهم أنه استباح دماء أنبياء الله.

(المتن)

والرّب – تعالى – يظهره ويؤيده، ويقيم الأدّلة والمعجزات على صدقه، ويقبل بقلوب الخلق وأجسادهم إليه، ويقيم دولته على الظهور والزيادة، ويذّل أعداءه أكثر من ثمان مائة عام.

فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرّافضة تجد القولين سواء.

(الشرح)

هذا التنظير بديع، يقول: إن هذا القول الذي ادعته الرافضة من أن الله تعالى رفع أعداء رسوله وأعداء أهل بيت رسوله، ويعنون بهم أهل السنة، أن هذا سوء ظن بالله، وما قدر الله حق قدره من أضاف ذلك إلى الله تعالى، وهذا شبيه بقول اليهود والنصارى الذين يعتقدون في نبينا محمد ﷺ أنه ملك ظالم تقَول على رب العالمين وأذل أتباع أنبيائه السابقين، و رغم ذلك ما زال الله يؤيده وينصره ويقيم دولته حتى ظهرت وزادت وأذل أعداءه أكثر من ثمان مائة عام، فهذان القولان متشابهان.

فمن قال بهما واعتقدهما فما قدر الله حق قدره؛ لأنه وصف الرب بعدم الحكمة وعدم النصرة لأوليائه، وهذا يدل على فساد مقالتهم، وفي الجملة الأخيرة ما يدل أو يمكن أن يستأنس به على زمن تأليف المؤلف لهذه الرسالة؛ لقوله: (أكثر من ثمان مائة عام)، فلعل المصنف –رحمه الله– ألف هذه الرسالة في أواخر حياته، بعد الثمان مائة، لأن وفاته كانت سنة ثمانمائة مائة وخمس وأربعين، وهذا دليل على أنه رسخ في العلم ونضج وتوصل إلى هذه العلوم النافعة والعقائد الصحيحة، والحجج القاطعة.

(المتن)

ولا قدره حقّ قدره من زعم أنه لا يحيي الموتى، ولا يبعث من في القبور ليبيّن لعباده الذي كانوا فيه يختلفون، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين.

(الشرح)

من أنكر البعث فما قدر الله حق قدره، كأنما يقول إن الله تعالى لم يخلق السماوات والأرض بالحق، هل يكون خالقا لهما بالحق لو كان الظالم يموت على ظلمه والمظلوم يموت على مظلمته؟ أين الحق؟ من ادعى أن الحياة تنتهي بخراب العالم وأنه لا بعث بعد ذلك فما قدر الله حق قدره، ولهذا قال ربنا: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ} [المؤمنون:١١٥].

من كان يظن أن أناسًا يقعون في المعاصي والشهوات والمظالم ثم يموتون ولا يؤاخذون، وناس يمضون أعمارهم في طاعة الله ﷻ والصبر على المكاره ثم يموتون ولا يثابون فقد أساء بالله الظن ولا قدر الله حق قدره، والمنكر للبعث يلزمه هذا اللازم.

(المتن)

وبالجملة: فهذا بابٌ واسعٌ، والمقصود أن كل من عبد مع الله غيره فإنما عبد شيطانا، قال تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [يس:٦٠]، فما عبد أحدٌ أحدًا من بني آدم كائنا من كان إلاّ وقد وقعت عبادته للشّيطان، فيستمتع العابد بالمعبود في حصول غرضه، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه مع الله – تعالى –، وذلك غاية رضى الشيطان.

ولهذا قال تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ} [الأنعام:١٢٨]، أي: من اغوائهم وإضلالهم، {وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [الأنعام:١٢٨]، فهذه إشارةٌ لطيفةٌ إلى السّر الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله، وأنه لا يغفر بغير التوبة منه، وأنه موجبٌ للخلود في العذاب العظيم، وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرّد النّهي عنه فقط، بل يستحيل على الله – سبحانه وتعالى – أن يشرع لعباده عبادة إله غيره، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله.

(الشرح)

أي أن قبح الشرك مدركٌ بالعقل والنقل معا، وفي هذا إجابة عن الأسئلة الثلاثة التي طرحها المؤلف.